

الثقافة ودورها في صياغة المشروع العربي النهضوي في عالم متغير

د ياسين جبار الدليمي

الأمة العربية عانت وتعاني جماهيراً وأنظمة حكم كثيراً من حالات التمزق والانفكاك ومواجهات التحديات والمخططات الاستعمارية الهادفة الى وهن وتفكيك الأمة العربية سعياً لتخلفها وعدم انبعاثها من جديد كأمة عربية شادت من الحضارة والتقدم الكثير وأغنت البشرية حضارة وعلماً وتعاملاً إنسانياً قلّ نظيره. وقد اتخذت هذه التحديات أشكالاً متعددة أهمها:

- 1- الغزو والاستعمار العسكري.
- 2- التفكيك والتشتير الجغرافي والبشري للأرض العربية وللأمة العربية كأمة واحدة من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي باختلاق كانتونات قطرية مانعة لوحدة هذه الأمة.
- 3- الغزو الثقافي بطمس معالم ثقافة الأمة العربية ابتداء من محاربة لغة العرب الجامعة والطعن بها والتجهيل التعليمي والثقافي وإحلال لغات المستعمر والسعي لتكريس اللهجات المحلية وتفعيل ودعم القطرية وتكريسها بعد أن طالت الوطن العربي أقلام التقسيم والتجزئة والتفتيت على خارطة الوطن العربي.
- 4- اتفاقية ((سايكس-بيكو)) وترسيخ السيادة القطرية وخلق التفاوت الهذام بين أبناء القطر الواحد أو الطعن بالأنساب العربية واختلاق أنساباً جديدة وصولاً لتجذير إثنيات قومية وطائفية في الوطن العربي أو حتى داخل الحدود المصطنعة للأقطار العربية وجعلها نائمة لحين احتياجها قتابل وازمات موقوتة لا بد من تفجيرها في المكان والزمان المناسبين.
- 5- الغزو الفكري فقد أخذ مديات متعددة بتكريس الفكر الاستعماري الإستغلاني بإيجاد مدارس فكرية تغريبية للإنسان العربي عبر هذه المدارس وتبجيل حركات التنوير الأوروبية وإيجاد الوهج في واقع متخلف ضمن حدود البيئة العربية. فنجد المدرسة العلمانية دون رفضاً للعلمانية الايجابية المتطابقة مع فكرنا العربي وعقيدتنا الاسلامية وثوابتنا الوطنية والقومية.

كذلك نجد المدارس الفكرية من أقصى الشمال الى أقصى اليمين من المدارس الماركسية والماوية والاشتراكية والمدارس الاقتصادية ذات المفهوم الاشتراكي بمدارسه ومذاهبه ومدرسة الاقتصاد الحر واقتصاديات السوق. فهذه المعاناة قد انعكست سلباً على الجماهير العربية وحركتها التاريخية وانحسار حصيلتها من حيث كون هذه الحركة بجوهرها ساعية لتحقيق الاستقلال الوطني والقومي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً من دون هيمنة او وصاية او تبعية.

وانعكست كذلك على البعض من أنظمة الحكم في الوطن العربي متجسداً بحالة الوهن والضعف السابق للموت حينما تخلت عن المشروع النهضوي الوحدوي للامة العربية. فنجدها في حالة من التمزق في المواقف وانعدام الاتفاق بالحد الأدنى في رسم السياسات وتحديد المواقف والضعف الواضح في الدفاع عن حدودهم المصطنعة قطرياً وحتى عن موافقهم السيادية.

إنّ هذه التداخيات قد توالدت في الإمة العربية توالداً إستنساخياً ومتوارثاً فنجد:

- أ- التمزق في الوحدة القطرية (الوطنية).
- ب- غياب المناداة بالوحدة العربية عبر دعاوي القطرية والانفصالية من خلال دعاوي الحكام الكسبة ومهامهم الوظيفية تكافلاً مع مشروع التفتيت القومي العربي وتكريس القطرية المنغلقة.
- ت- مناخ اليأس وفقدان الثقة لدى الجماهير العربية بنفسها أحياناً وبالأنظمة القائمة أحياناً كثيرة بل وقد تكون لازمة عند أجيال الأمة على مدى العقود الثلاثة الأخيرة من حياة العرب.

ث- الاحباط واليأس المتوارث في عدم اتفاق الحكام العرب على الحد الأدنى من الثوابت الوجودية والقواسم المشتركة العربية الجامعة.

ج- غياب الشفافية في السياسة العربية سياسياً واقتصادياً وإدارياً.

ح- الخلل الحال والمستدام في المجتمعات العربية وغياب العدالة الاجتماعية والتفاوت الطبقي ونفشي الفساد الإداري والمالي.

خ- القبضة الحديدية التسلطية للحكام في معاملة الجماهير وظهور فلسفة الهبات السلطانية في الاعتراف بحقوق هذه الجماهير السياسية والاقتصادية والاجتماعية دون إغفال فساد أجهزة الإدارة والسلطة المطلقة في انتهاج سياسة الاضطهاد الاجتماعي والسياسي.

إنّ كل ما تقدم ما هو الا نتيجة طبيعية لخروج العرب على الثوابت الوطنية والقومية العربية مع عدم إغفال اجتماع عوامل متعددة واجهت وتواجه الامة العربية عسكرياً واقتصادياً وثقافياً عبر موجات متلاحقة من الهجمات وما يهمنها في هذا المقام هو المواجهة الثقافية ودورها في صياغة المشروع النهضوي العربي في هذا العالم المتغير ولنا هنا استعراضية لواقعنا العربي الثقافي (ولو على عجلة بلزوم ما لا يلزم):

1- عانى مثقفو السلطة من جهل فاضح في تاريخ الامة العربية وميراثها القومي ولهذا نجدهم يعتمدون ثقافة لا صلة لها بالتراث العربي الاسلامي.

2- شراء السلطة وأجهزتها لبعض المثقفين ورجال الدين وأنصاف المثقفين دينياً وتربطهم في تلك السلطة ليتحولوا الى وعاظ ومثقي السلطان.

3- الجهل التام باللغة العربية وآدابها فالأدبيات تشكو من تدهور البناء اللغوي للعبارة السياسية ومستوى الاداء اللغوي الركيك وفداحة الخطأ اللغوي في الخطاب السياسي، وهذا متأثراً من جهل كامل بقوانين الكلام وروحية اللغة العربية.

4- غياب الموروث الشعبي العربي في الادبيات: (قصة / رواية / شعر / مسرحية) وانعدام استلهامه قومياً يقرب بين أبناء العروبة بحكم الثوابت والقواسم المشتركة قومياً، وهذا متأثراً من الجهل في صناعة الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب

5- لم تتشكل في الذهن القومي العربي صورة البطل القومي الإنسان الذي يستحق احتفاء و استحضاراً واهتماماً لعدم اشغال اصحاب المهنة لمراكز الثقافة والاعلام الرسمية وشبه الرسمية وبعدها عن اهتمامات الجماهير وموروثها الشعبي وتقاليدها وعاداتها المتوارثة.

6- تلوث البيئة العربية بالثقافة الواطنة والوافدة المستهدفة للعرب وتكوينهم وحياتهم عبر أهداف هذه الثقافة الوافدة والواطنة سلوكياً وأستراتيجياً في احداث متغيرات في العقل القومي العربي وخصوصاً لدى الشباب أساساً وإبعادهم عن قيم وتعاليم الموروث القومي العربي الإسلامي وإشغالهم باهتمامات وسلوكيات منحرفة.

إنّ ما يتعرض له الوطن العربي أرضاً وشعباً من تحديات ثقافية إعلامية وحضارية مع ثورة الاتصالات ساعية لتحطيم الوجود القومي العربي تبدأ بتكريس ثقافة تغريبية لإحداث انهيارات فكرية وثقافية ونفسية وتربوية إيصالاً للعرب الى حالة الضعف والخوف والتردد السائدة في بعض مجتمعاتنا سياسياً واجتماعياً والمنتجة للفكر اليائس والانهزامي المراد له تأسيساً عمودياً وأفقياً.

فنحن هنا نرى لابد من إطلاق مشروع عربي ثقافي وإعلامي نهضوي مواكباً لفعل المتغيرات والتطورات الدولية والعالمية واستحقاقات ذلك سياسياً وفكرياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً يرسخ هويتنا القومية والعربية الإسلامية. وإحداث متغيرات هادفة واعية ناضجة وتاريخية في مسار نضال الأمة العربية وحركتها التاريخية بروية دقيقة شاملة تجديدية مستوعبة لروح الأمة العربية وموروثها الحضاري

العميق باستشراف المستقبل الموعود موحداً قومياً بدولة الوحدة القومية الجامعة لأبناء العروبة من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي.

إننا نوصي:

أولاً : الإطار الفكري ويشمل ما يلي:

- إن حركة نهوض قومي جديد لا يمكن لها الوجود بغياب الديمقراطية وهي مهمة في تحرير إرادة الإنسان وعقله وإعادة الاعتبار لهما.
- إن مهمة نجاح المشروع النهضوي التحرري الديمقراطي في مجال الثقافة وإعادة تشكيلها يتطلب الحرية من حرية الكلمة المقدمة الأولى للديمقراطية وبضمانة القانون الكافل لهما.
- إن مهمة هذا المشروع إيجاد عصر أنوار عربي جديد تستمد عناصره الأساسية من التراث الحضاري العربي الإسلامي ومن منجزاتهما الفكرية والحضارية الإنسانية ومن صورة المستقبل المشرق لأمة العرب المكمل بالوحدة العربية والنهوض القومي الجديد.

ثانياً : الإطار العملي ويتطلب ما يلي:

1- طليعة واعية رائية لأزمة الامة العربية وما يحيطها من تحديات ومتغيرات عالمية باستشراف واع، هذه الطليعة تقع عليها مسؤولية ثقافية اعلامية مواكبة لفن وصناعة الثقافة والإعلام عاملة بالفعل لا بردة الفعل.

2- إنشاء شبكة إعلامية واسعة تغطي الوطن العربي إعلامياً وتخطب العقلية العربية أولاً والدولية ثانياً عبر المطبوع /صحف / مجلات / دوريات ثقافية وتاريخية وجغرافية وعبر الوسائل المرئية والمسموعة.

3- إنشاء او دعم ومساعدة المراكز القومية العربية للبحوث والدراسات في المشاركة في عمل لجان المشروع الثقافي النهضوي وإسهام هذه المراكز في اعداد الدراسات والبحوث والندوات والمؤتمرات الساندة والمساعدة لإنجاح أهداف المشروع.

4- إنشاء محطة فضائية تلفزيونية عربية جامعة لكل العرب ومستقلة استقلالاً إدارياً وإشرافياً عن الانظمة العربية وتكون فضائية ملتزمة قومياً وتحرراً وحدوياً، ويشرف عليها نخبة واعية ترسم لها ثوابتها ونطاقها المحدد لأهدافها القصيرة المدى – والبعيدة. ومواكبة لصناعة الإعلام ومعطيات التقنيات الحديثة في وسائل الاعلام.

5- الإستخدام الأمثل لوسائل الاتصالات ومواكبتها واستخدامها استخداماً جيداً وناجحاً في مخاطبة الرأي العام العربي والعالمي.

6- التعاون والتنسيق مع وسائل الإعلام المحلية والإقليمية والدولية الساندة والداعمة للقضايا العربية وتعزيز التعاون معها وترسيخ ذلك بالتعاون المشترك.

وفقنا الله تعالى لخدمة العروبة والإسلام

د. ياسين جبار الدليمي